كلمة البروفسور الأب سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف، في افتتاح يوم "اللغات والترجمة: أبداً معاً" الذي نظّمته كليّة اللّغات ومدرسة الترجمة – بيروت يوم الجمعة الواقع فيه الأوّل من آذار/مارس ٢٠١٣

اسمحوا لي في مستهلّ كلمتي وقبل أن أسرد عليكم واقعةً حدثت لي، أن أتوجّه بالشّكر إلى كليّة اللّغات مُمَثَّلة بشخص عميدها ومديرة مدرسة الترجمة – بيروت وكل المسؤولين الذين قاموا بتنظيم هذا اليوم الرّائع بعنوان "اللغات والترجمة: أبداً معاً".

أبدأُ مداخلتي بواقعةٍ أرجو أن تلقى منكم آذانًا صاغية. في العام ٢٠٠٨، انتخبني زملائي اليسوعيّون ممثّلًا لهم في الجمعيّة العامّة الخامسة والثّلاثين للرهبنة اليسوعيّة الّتي انعقدت عقب استقالة الرئيس العام بيتر هانس كولفنباخ. فعُهدت إلينا مهمّة انتخاب الرئيس العام الجديد للرهبنة اليسوعيّة بعد شهرين من التّفكير وتبادل وجهات النّظر، في جوٍّ روحيّ مميّز، ووسط بابل لغوّي لم يحُل دون تفاهمنا وحرصنا على الأفضل والأنسب لرهبنتنا اليسوعيّة. أخيرًا في الأسبوع الثّاني من شهر نيسان/أبريل، تصاعد الدّخان الأبيض مُعلنًا انتخاب الأب أدولفو نيكولاس الإسبانيّ الأصل، رئيسًا عامًّا للرهبنة. وبعد مثول الأعضاء أمام الرئيس الجديد تعبيرًا عن واجب الطّاعة بحسب ما تمليه قوانين الرّهبنة، توجّه الرئيس إلى الناخبين المئتين والخمسين، بكلمة مأثورة، استوقفتني منها فقرة تناول فيها أسباب انتخابه، وتتّصل باجتماعنا اليوم. لقد سألَنا: "لماذا انتخبتموني؟ هل لأنّني أمضيت سنوات كثيرة من الخدمة في اليابان أو الفيليبين، أو لأنّني أتمتّع بصفات روحيّة وإنسانيّة، وقد أفصحتُ عن مواطن ضعفي بلا خجل؟" غير أنّ السبب الثّالث الّذي حسم، برأيه، قرار انتخابه يتمثّل بإتقانه عددًا من لغات التواصل الّتي تتيح له مخاطبة أعضاء الرّهبنة كلّ بلغته. الواقع أنّ الأب أدولفو الّذي زارنا في بيروت منذ سنتين وخاطب الطلاب والأساتذة بلغة فرنسيّة سلسة، يتقن أيضًا، إلى جانب لغته الإسبانيّة الأمّ، اللّغات اليابانية والإنكليزية والصينيّة والبرتغاليّة والفرنسيّة وغيرها من اللّغات باستثناء العربيّة. وفي ختام كلمته، دعا اليسوعيّين إلى تعلّم الكثير من اللغات، لأنّ مستقبل العالم يحتّم على الشعوب، ليسود السلم والتّفاهم بينها، ضرورة أن يتقن كلّ منها لغة الآخر. ولم يخلُ الختام من بعض الفكاهة، حيث قال إنّ التعدّدية اللّغويّة أشبه ببابل صالح يتيح الحوار واللقاء في جوّ من الصداقة والمحبّة. أمّا البابل السيّء فينبع من العقل السيّء، ويمكث في أوساط أحاديّي اللّغة، بعد أن تنبذه قلوب متعدّدي اللّغات.

في هذا السياق، لن أشيد بأهميّة التعدّدية اللّغويّة الّتي تميّز الكثيرين، رجالًا ونساء، فتتيح لهم التواصل مع الآخر المختلف. وإنما سأشدد على أن التّعددية هذه جسر تقاربٍ ولحمة بين الأشخاص، تفتح القلوب وتُبرم العقود. التّعدّدية وسيلة للمشاركة العاطفيّة ولتبادل الثقة وإقامة المشاريع المهمّة. إلا أنها قد تفسح المجال لبعض التجاوزات، ومنها الجاسوسيّة الصناعيّة أو غيرها، والنّميمة أو غيرها من الآثام الجوهرية؛ وهي في هذه الحالات شرّ يولد من العقل وليس من اللغة نفسها الّتي تبقى الوسيلة. في يومنا هذا، لم يعد كافيًا إتقان اللّغة الإنكليزيّة لغة عالميّة. ففي بعض البلدان، ومنها البرازيل أو الصين، وهما قارّتان بحدّ ذاتهما، يؤدّي جهل الفرد بعضًا من مصطلحات اللّغة الأمّ إلى إلغائه.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الحركيّة المتنامية بين القارّات تحتّم أخذ هذه التعدّدية على محمل الجدّ واعتبارها ميزة أساسيّة. ولكنه لا يسعنا التّغاضي عن لغات أخرى مختلفة عن اللّغة المحكيّة، وأقصد بها لغة العين والقلب والحركة والابتسامة والغضب، وهي لغات نفسيّة لا بدّ من إتقانها أيضًا، لأنّ اللّغة، أحاديّة كانت أم تعدّدية، لا تكتمل من دونها.

أصدقائي الأعزّاء، لا يمكن فصل التعدّدية اللّغوية عن مدينة بيروت العالميّة، مدينة الحوارات، لا سيمّا منها ذاك الحوار العميق الّذي يحطّم الحواجز ويفتح قلوب الأشخاص. هذه التعددّية لا يمكن فصلها عن جامعة القدّيس يوسف الّتي تُكمل، من خلال كليّة اللّغات، رسالة لبنانيّة، عنوانها صلة الوصل، رسالة إعداد للتعددية اللغوية والروحية ولاتحاد العقول والقلوب. إنها رسالة الإعداد للّغات بالمعنى المزدوج للمصطلح.

إنّ أحاديّة اللّغة هي الاستثناء، في حين أنّ التعدّدية، أو الثنائية الفرنسية العربية على الأقل، هي القاعدة. هنا يكمن التحدي لبلوغ أحد أهداف الفرنكوفونية: إرساء الانفتاح بين الثقافات والحضارات وعيش القيم الإنسانيّة الّتي تعزّز الإنسانيّة فينا وتنميّها. وهذه دعوة جامعة القديّس يوسف.

أن نتكلّم على التعددية اللغوية هو أن نتكلّم أيضاً على أولئك الذين آمنوا بالتنوّع المبني على احترام الآخر وعملوا في هذا الاتجاه. لا شكّ في أنكم عرفتم من أقصد: إنه الذي استجاب لدعوتنا وأتى ليشاركنا الخبرة الغنيّة التي استقاها من عمله في الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي ووزارة الخارجية في مدريد ولا ننسى مهامه الجديدة ضمن "التحالف العالمي للأراضي الجافة".

حضوره بيننا يشرفنا بلا ريب، ويسرّنا أن نستمع إليه كشاهد على لغة المصالحة هذه التي تبدو لنا أحياناً بمتناول اليد. حضرة السيد موراتينوس: شكراً... الكلمة لكم.